ماذا ينبغي ان أكون (١)

ايها السيدات والسادة

أحييكم جميعاً تحيّة المساء وأهنئني بكم احسن اهتناء . وأثني على تشريفكم هذه الحفلة اجمل ثناء

أحب بها من حفلة غرّاء حبت القلوب مسرةً وهناء
كرّت على جيش الدجى انوارها وتخطّفته فمزّقته هباء
جئنا اليها في المساء وكلنا في حيرةٍ اذ لم نلاقِ مساء
واذا استحال الى الصباح مساؤنا فيها فربعنا يكون سماء
فاض الضياء بها وعمّ كأنها شمس تُشعّ على الحضور ضياء
هي في ضياء ساطع ينبثّ من غاز يحاكي النيرين بهاء
ولها ضياء آخر من مطلع ال وجنات يطفح بهجة ورواء
هذان . والثاني الاهمّ لانهُ بقلوبنا مستأثر ما شاء
طوراً يملّينا الرجاء فنجتلي أقمارهُ ويزيدها استجلاء
ويصدّ عنا تارةً فيردّنا من يأسنا في ليلة ظلماء
ولها ضياء ثالث ما جاء من غازٍ ولا من كهرباء جاء
قبسةٌ من دار العلوم تشعّهُ فينا فيصدع للظلام رداء
بارَتْ به ما في محيط الارض من نور وفاقتهُ سنًى وسناء

***

دارَ العلوم عمي مساء واسلمي واسمي وزيدي ما اردتِ نماء
وليعلُ في فلك الكنانة بدركِ الـ موموقُ وضّاحَ السنى وضّاء
واهوي على الليل البهيم بنورهِ وأقضي على الجهل الوخيم قضاء
ولشبّ فيكِ الطالبات كواكبا ولهنّ دوي قبّةً زرقاء

(١) خطابة القيت في حفلة توزيع الشهادات على متخرجات مدرسة البنات الاميركية بالازبكية في ٢٢ دسمبر الماضي

وبعد فلقد انتدبني منذ بضعة ايام حضرة شيخنا الوقور الجليل وراعينا العزيز النبيل الدكتور وطسن لاقول كلة في هذه الحفلة الزاهرة وعلى رغم ضيق وقتي وقلة استعداي لم ارَ بدًّا من اجابة الاقتراح بمزيد الارتياح

واذ انكم تقاسموني فرح النظر الى هؤلاء الاوانس المنتهيات والعذارى العشر — وكلهنَّ حكيمات — واقفات امامكم موقفًا يتهيبهُ الكهول ويحترمهُ الشيوخ وتشاركوني في مسرة عدتهنَّ خير وسيلة فعَّالة في ترقية الوطن ورفع شأنهِ استأذنكم في توجيه كلامي اليهنَّ في ما اقولهُ بما استطيع من الاختصار

فلا يخفى عليكنَّ ايتها الاوانس ان حياة الانسان من المهد الى اللحد اشبه شيء بمراحل يقطعها المسافر . فتبتدئ المرحلة الاولى باخروج من السرير او الحجر وتنتهي الاخيرة بالدخول في باب القبر . لانهُ :—

«كل ابن انثى وان طالت سلامتهُ يومًا على آلةٍ حدباء محمولُ»

ولكي يأمن المسافر اخطار السفر ويخفف عن نفسهِ ثقل مشقاتهِ واتعابهِ يستعد لهُ قبل شروعهِ فيهِ ويسأل من جرَّبوهُ قبلهُ عن احتياجاتهِ . فان قيل لهُ مثلاً ان في الطريق لصوصًا سارقين شاكي السلاح . وان قيل لهُ ان الطريق مضلَّةٌ لا يُؤمن لهُ فيها هدى استعان عليها بدليل . وان قيل لهُ انها مَعْطَشَةٌ وليس من طعام يباع فيها اعدَّ الزاد والماء . وهكذا يهيئ كل ما يحتاج اليهِ ثم يسير آمنًا مطمئنًّا

ولكي يقطع الانسان مراحل هذه الحياة بسلام ويصيب فيها عيشة راضية يجب عليهِ ان يدرس طبيعة كل مرحلة منها على حدة ليعرف ماذا ينبغي لهُ ان يكون فيها فيكون

ثم ان المراحل التي يقطعها المسافر تختلف بعضها عن بعض اختلافًا عظيمًا . فقد تكون الواحدة منها سهلة الطريق امينتها ومعهُ فيها بعض الرفقاء الامناء الذين عرفوها من قبل فيسير متكلاً على هدايتهم وارشادهم . بينما تكون المرحلة الاخرى صعبة المسير خطرتهُ وليس معهُ فيها من يرشدهُ او يهديهِ فيسير مستوحشًا ينهكهُ الاعياء ويهيم على وجههِ خابطًا كالعشواء في الظلماء

وهكذا الحياة فان مددها تختلف بعضها عن بعض في المشقات والاتعاب ولزوم الاهتمام . وها انتنَّ قد حزتنَّ الآن منها مدَّتين وقطعتنَّ مرحلتين ولم تعانين فيهما شيئًا مما ستعانينهُ في المراحل المقبلة ان لم تأخذن الاهبة لنفوسكنَّ منذ الآن

ففي خروجكنَّ من هذه المدرسة تشرعن في اجتياز طور الصبوة او مرحلة الشباب وفي

اصعب مرحلة في طريق الحياة . وعلى كل منكن ان تقف في اول هذه المرحلة وتسأل نفسها قائلة « بم استعد لها ؟ وماذا ينبغي ان اكون » وهذا هو موضوع كلامي

فماذا ينبغي ان تكن ؟ نعم — من الآن — قبل خروجكن من المدرسة يجب ان تعرفن ماذا ينبغي ان تكن . قبل شروعكن في قطع هذه المرحلة المحفوفة بالمخاطر والمحاطة بالمزالق والمعاثر عليكن ان تبحثن وتفتشن ولتسألن انفسكن ماذا ينبغي ان تكون

ولهذا السؤال اجوبة كثيرة لا يسعنا ان نعدها كلها . ولكن اذا سألتني كل منكن عما يحقسرني من الجواب قلت لها ينبغي ان تكوني فتاة للوطن اي ان تنفقي حياتك على عمل كل ما يرقي مصر العزيزة ويرفع شأنها العالي ويسعد اهلها المحبوبين

ولكي تكوني بالحقيقة فتاة للوطن ينبغي لك ان تنعمي النظر في امرين عظيمي الاهمية ومنهما يتضح لك المراد وتعرفين الوسائط التي يجب عليك اتخاذها للوصول الى المطلوب . واول هذين الامرين داخلي يتعلق بك والآخر خارجي يتعلق بالعالم حولك

فالاول — النظر الى نفسك — الى معرفة ذاتك — معرفة ما انت وما لك وما عليك . وهذا الامر صعب الى الغاية . فليس بسهل ان يعرف المرء نفسه . لانها غاية العلم ونهاية الحكمة . والبحث عنها غامض تغشاه ظلمات لا تنقشع الا بنور التواضع وضياء الاذعان للحق

اذاً التواضع اول خطوة في سبيل معرفة النفس . أي يجب عليك لكي تعرفي نفسك — لكي تدركي ما انت — ان تكوني متواضعة

واعلمي ان ملاك العلم لا يحاول في هذه الايام اصلاحاً واحداً الا وشيطان الجهل يعترضه بالف افساد . واعظم ما يوسوس به في الصدور هو الكبرياء وادعاء العلم — واذا كان التواضع يجعل الشياطين ملائكة فالكبرياء تجعل الملائكة شياطين

فالتواضع تجنبن من غوائل الكبرياء وتخلصن من حبائل الادعاء التي يخفيها لك شيطان الجهل وانت سائرة في قفار مرحلة الشبيبة « وفي الطريق اهوال » . وبنور التواضع ترين انك بعدُ جاهلة قاصرة وفي حاجة شديدة الى زيادة العلم والمعرفة والسعي في طلب الكمال . وبالتواضع فقط تعرفين نفسك — تعرفين ما لك وما عليك . أي تدركين ما حصلتهِ من القواعد العلمية والادبية وما غُرس فيك من طهارة الاخلاق والفضائل وأشربهُ قلبك من مبادىء الانسانية الصادقة وهذا كل ما لك . أما ما عليك فهو اكثر جداً مما لك . فاذا نظرت الى نفسك بمرآة التواضع — بمرآة التواضع لا بمرآة العجب والكبرياء — رأيت انك لستِ سوى طفلة صغيرة أي ليس فيك بعدُ اقل استحقاق لان تكوني فتاة للوطن ما لم تستعدي

منذ الآن الاستعداد الكافي وتستخدمي جميع الوسائط التي توصلك لان تصيري فتاة تنفع الامة والبلاد وتُعين على تكثير موارد الخير والاسعاد

والثاني — النظر الى العالم حولك ويراد به الوقوف على خفايا امورهِ وغوامض شؤونهِ وهذا لا تستطيعينهُ الاَّ بعد ما تكونين قد خرجتِ اليهِ واختبرتِ احوالهُ . ولكن حاجتكِ الى هذا النظر انما هي الآن . ولذلك رأيت من الضرورة ان اجعلكِ تنظرين اليهِ وانتِ واقفة هنا لا بعينكِ بل بعين من سبقكِ اليهِ واطَّلع عليهِ . فترين ولكن ماذا ترين؟ ترين امامكِ مرحلة تختلف كل الاختلاف عن مرحلتي البيت والمدرسة اللتين قطعتهما في الماضي . فقد سرتِ قبلاً لا تشعرين بوحشة ولا تشكين تعباً ولا تخافين لصوصاً في الطريق ولا ضلالاً عن محجة المدى والصواب لان امر العناية بكِ والسهر عليكِ كان موكولاً في البيت والمدرسة الى والديكِ ورئيستكِ ومعلماتكِ . واما الآن فقد اصبح هذا الامر كلهُ موكولاً اليكِ . كنتِ في الماضي تسيرين بين احنَّ من امٍّ واشفقَ من ابٍ والصقَ من شقيقٍ وارفقَ من صديق اما الآن واسفاه فانكِ تسيرين في عالم فيهِ الوفاء اعزُّ من جبهة الاسد . والولاء اندر من الكبريت الاحمر . والمودَّةُ اسمٌ بلا مسمًّى . والصداقة لغز او معمًّى

وهاذا القول فانهُ يعوزني الوقت ان اردت استيفاء الكلام على سائر وجوه الاختلاف بين احوال حياتكِ الماضية واحوال حياتكِ المستقبلة المحفوفة بالريب والشكوك . فعليكِ ان تكوني دائماً على حذر من اهل العالم . وان استطعتِ في الليل ان تشاكلي الذئب الذي يحكى عنهُ انهُ : —

« ينام باحدى مقلتيهِ ويتقي باخرى المنايا فهو يقظان نائمُ »

فحسناً تفعلين لان الايام شريرة وكثيرون من اهلها شرٌّ منها

هذا وقد يقال — ولا اعلم مبلغ هذا القول من الصحة — ان الوطن استوفى بعض حاجتهِ من الشبان المتعلمين . ولكن مما لا ريب فيهِ انهُ في اشد احتياج الى فتيات متعلمات متهذبات يطلعن في سمائهِ كواكب هدًى وإرشاد ويجُلنَ في ارضهِ ملائكةَ خيرٍ واسعاد ويستأصلنَ ما في ربوعهِ من جذور الشر والفساد

ولعلَّ أوقع كلام يليق بنا ان نتذكرهُ هنا هو قول يوآب ابن اخت الملك داود وقائد جيشهِ لاخيهِ ابيشاي قبيل هجومهما بجيش الاسرائيليين على جيش العمونيين والاراميين . فان هذا القائد المحنك قسم جيشهُ الى قسمين واختار لنفسهِ الرجال المنتخبين والابطال المجربين ليحمل بهم على الاراميين الذين يرجح انهُ رآهم اشدَّ من العمونيين وولَّى اخاهُ قيادة باقي الجيش

يحمل به على العموتين ولكنهُ قبل كل شيء — قبل سل البيض العقال وهز السمر الطوال — رفع نظرهُ الى اخيهِ وكلهُ على مرأى جميع الرجال ومسمعهم قائلاً :— « ان قوي ارام عليّ تكن لي مجدٌ وان قوي عليك بنو عمون اذهب لمجدتك . فتجلد ولتشتد من اجل شعبنا ومن اجل مدن الهنا والرب يفعل ما يحسن في عينيهِ »

وقد اعدّتكنّ أمّكنّ المدرسة للجهاد الموضوع امامكنّ فتذكرنّ كلمات يواب التي هي على قصرها ابلغ خطبة قالها قائدٌ في العالم واُخرجنّ متضافرات متناصرات . متجلدات متشددات من اجل شعبكنّ ومن اجل مدن الهكنّ . واقدمنّ على هذا العمل الكبير الخطير . اقدام الابطال المغاوير . مستعينات باصل وذرية داود ومستضيئات بشمس البر وكوكب الصبح المنير

وفي الختام اشكر لحضرة رئيسة المدرسة الفاضلة مس مارتن وجميع مساعداتها العالمات العاملات مسهرهنّ الدائم وسعيهنّ الكامل في تهذيب فتياتنا وتنشئتهنّ على اقوم المبادىء واطهر الفضائل . ولما كانت الرئيسة مزمعةً ان تفارقنا الى اميركا للاستراحة قليلاً من اتعابها فانا منذ الآن ندعو لها بسفر ميمون سعيد . وعود باذن الله حميد

اسعد داغر

الفيل القديم

الفيل من حيوانات البلاد الحارة ولا يوجد الآن في اوربا الاّ اذا نُقل اليها من افريقية او من الهند لكنهُ كان يقطنها في غابر الزمن حينما كان اقليمها حارًّا . وقد وجدت عظامهُ فيها ووجدت ايضاً قطع من عاج انيابهِ وصورتهُ مرسومة عليها دلالة على ان الانسان سكن اوربا في الزمن الذي كان اقليمها فيهِ صالحاً لسكن الفيل فيها وكان قد مهر في رسم صور الحيوانات

منذ نحو اربع سنوات كان بعض المهندسين يحفرون في مكان من بلاد الانكليز فعثروا على عظام فيل وجانب من ناب كبير جدًّا . ثم اضطروا ان يوقفوا الحفر لسبب من الاسباب وجاء بعدهم عالم اسمهُ ترنر كان يفتش عن الظران اي قطع الصوان التي كان الاقدمون يخفونها سكاكين ورؤوساً للسهام فوجد بعض هذه العظام فاتى بها الى متحف التاريخ الطبيعي البريطاني ففحصها علماء العظام وقالوا انها من قوائم فيل كبير الجسم جدًّا والعمال جاء اناس من قبل المتحف وبحثوا في ذلك المكان فوجدوا عظاماً اخرى استدلوا منها على ان